الباب الثانى والعشرون

تمـــدين الغرب

الفصل الأول

رومة والولايات

كانت الوصمة التى يوصم بها رخاء إيطاليا — إذا غضضنا النظر عن نظام الاسترقاق الذى كان نظاماً عاماً فى الدول القديمة — هى اعتمادها إلى حد ما على استغلال الولايات . لقد كانت إيطاليا معفاة من الضرائب لأن الولايات كانت تؤدى لها الشىء الكثير نهباً أو خراجاً ، ومن ذينكما النهب والخراج كان أصل الثروة التى نشأ عنها ازدهار المدن الإيطالية . وكانت رومة قبل عهد قيصر تعدّ الولايات أقاليم تمتلكها بحق الفتح ، وتعد سكانها جميعاً رعايا رومانيين ، ولم يكن منهم إلا عدد قليل يعدون ضمن المواطنين الرومان ؛ وكانت أرض تلك البلاد بأجمعها ملكاً للدولة الرومانية ، يمتلكها أصحابها على أنها منحة لهم من قِبل الحكومة الإمبراطورية ومن حقها أن تستردها منهم . وأرادت رومة أن تقلل من احتمال قيام الثورات الأقاليم المفتوحة فقسمتها ولايات صغيرة وحرّمت على كل ولاية أن يكون بينها وبين غيرها من الولايات معاملات سياسية مباشرة ، وكانت تفضل رجال الأعمال على الطبقات الدنيا فى جميع الولايات . وكان سر الحكم الرومانى وشعاره هو فرّق تسد Divide et impera .

ولعل شيشرون كان يبالغ حين قال عن أمم البحر الأبيض المتوسط ، فى

سياق تشهيره بڤريس Verres ، إن بلادها كانت مقفرة فى عهد الجمهورية : « إن كل الولايات تندب حظها ، وجميع الأحرار يضرخون ويعولون ، وجميع الممالك تحتج على قسوتنا وشرهنا ، وليس ثمة مكان فيما بين المحيطين ، مهما يكن قاصياً أو خافياً ، لم يشعر بوطأة جشعنا وظلمنا »[1] . أما الزعامة فكانت أكثر سخاء من الجمهورية فى معاملتها للولايات ، ولم يكن هذا كرماً منها بل كان حسن التدبير . فقد كانت الضرائب فى أيامها غير باهظة ، وكانت تحترم الأديان واللغات والعادات المحلية ، وكانت حرية الكلام مباحة إلا إذا كانت طعناً فى السلطة العليا ، وسمحت لها أن تحتفظ بقوانينها المحلية ما دامت هذه القوانين لا تتعارض مع مكاسب الرومان وسيادتهم . وقد اتبعت خطة مرنة حكيمة أمكنها بها تقسيم الولايات الخاضعة لسلطانها أقساماً متفاوتة فى المرتبة ، وتقسيم الأهلين فى داخل كل ولاية طبقات متفاوتة القدر كذلك . فقد كانت بعض البلديات كأثينة وروودس « مدنا حرة » ، تعطى جزية ، ولا تخضع لحاكم الولاية ، وتدير شئونها الداخلية بنفسها من غير أن تتدخل فيها رومة ما دامت تحتفظ بالنظام الاجتماعى والسلم . وقد سمحت رومة لبعض الممالك القديمة أمثال نوميديا وكپدوكيا أن تحتفظ بملوكها ، ولكن هؤلاء الملوك كانوا « أقيالا » لرومة يعتمدون على حمايتها وسياستها ، وكان يطلب إليهم أن يمدوها بالمال والعتاد إذا أرادت ذلك . وكان حاكم الولاية يجمع فى شخصه السلطة التشريعية والتنفيذية ، والقضائية ، ولم يكن يحد من سلطانه إلا المدن الحرة ، وحق المواطن الرومانى فى أن يلجأ إلى الإمبراطور ، وللرقابة المالية التى كان يقوم بها الكوستر أو الرقيب .

غير أن هذا السلطان المطلق كان يغرى الحكام بأن يسيئوا استخدام سلطتهم ، ومع أن المدة التى كان يتولى فيها الحاكم منصبه قد طالت فى عهد الزعامة ، ومع أن مرتبه ومخصصاته الأخرى قد زيدت زيادة كبيرة ، ومع أن مسئوليته عن أعماله المالية أمام الإمبراطورية قد قللت من فساد الحكم وسوء

استعمال السلطة ، فإن فى وسعنا أن نستدل من رسائل پلنى ومن فقرات كتاب تاستس ، على أن ابتزاز المال والفساد لم يصبحا من الأمور النادرة فى آخر القرن الأول .

وكانت جباية الضرائب أهم أعمال الحاكم وأعوانه . وكانت الدولة فى عهد الإمبراطورية تقوم بإحصاء عام فى كل الولايات ، ويقصد به فرض الضرائب على الأرض وعلى الأملاك — ومنها الحيوانات والعبيد . وأرادت الدولة أن تشجع زيادة الإنتاج فاستبدلت بالعشور خراجاً محدد القيمة ، ولم يعد الملتزمون هم الذين يجبون الضرائب ، وإن ظلوا يجبون بعض العوائد الجمركية فى الثغور ، ويشرفون على الأعمال الجارية فى غابات الدولة ومناجمها وعلى الأشغال العامة فيها . وكان ينتظر من الولايات أن تسهم عمل تاج من الذهب لكل إمبراطور جديد ، وأن تقوم بتكاليف إدارة الولاية ، وأن ترسل فى بعض الحالات سفناً محملة بالغلال إلى رومة . واحتفظ فى الشرق بالعادة القديمة ، عادة أداء الأفراد خدمات عامة للدولة ، ثم انتشرت فيما بعد من الشرق إلى الغرب . وكان للحكومة المحلية أو للوالى بمقتضى هذه العادة أن « يطلب » إلى الأغنياء أن يقدموا قروضاً للحرب ، وسفناً للأسطول ، ومبانى للأغراض العامة ، وطعاما لضحايا القحط ، ومغنين فى الأعياد والمسرحيات .

ويقول شيشرون ، وهو ممن تولوا بعض المناصب العامة فى الدولة ، إن الضرائب التى كانت تؤديها الولايات لا تكاد تكفى نفقات الإدارة والدفاع (٣) . وكان « الدفاع » عندهم يشمل القضاء على الفتن والثورات ، وأكبر الظن أن نفقات « الإدارة » كانت تشمل المطالب التى خلقت ذلك العدد الكبير من الرومان أصحاب الملايين . ومن واجبنا ألا نرى حرجاً فى أن ترسل أية سلطة يناط بها حفظ الأمن والنظام فى ذلك الوقت جباة يجمعون أكثر مما يكفى لهذين الغرضين . على أن الولايات قد عمها الرخاء فى عهد حكومة الزعامة على الرغم من

هذه الأعباء كلها . ذلك بأن الإمبراطور ومجلس الشيوخ قد فرضا رقابة شديدة على الموظفين فى الولايات ، وكانا يفرضان أشد أنواع العقاب على كل من يسرق من الأموال أكثر مما تبيحه له منزلته . وكان ما يؤخذ من الولايات أكثر مما يتطلبه الفرضان السابق ذكرهما يرد آخر الأمر إليها ثمناً لبضائعها . وبفضل هذا العون الذى كان يقدم للصناعات أصبحت الولايات، أقوى من إيطاليا الطفيلية المزعزعة الكيان . وجدير بنا أن نختم هذا الفصل بالعبارة الآتية المنقولة عن أفلوطرخس ، وهى أن نعمتين يجب أن تضمنهما الدولة للشعب قبل كل شىء : وهما الحرية والسلام ؛ « فأما السلام فلسنا فى حاجة إلى أن نشغل أنفسنا به ، لأن الحروب كلها قد وضعت أوزارها . وأما الحرية فإن لنا منها ما تركته لنا الحكومة (رومة) ؛ ولعلها لو أبقت لنا أكثر مما فعلت لما كان ذلك من مصلحتنا »(٤) .

الفصل الثانى

آفريقيـــة

ضمت كورسكا وسردينيا معاً وتكونت منهما ولاية واحدة ، ليست جزءاً من إيطاليا ؛ وكان الجزء الأكبر من كورسكا أرضاً جبلية مقفرة ، يصيد فيها الرومان الأهلين بالكلاب ليبيعوهم عبيداً(٥) . أما سردينيا فكانت تمدهم بالعبيد ، والفضة ، والنحاس ، والحديد ، والحبوب ؛ وكان فيها ألف ميل من الطرق الصالحة ومرفأ جيد ممتاز هو مرفأ كرالس Carales (كجلياري الحالية) . وكانت صقلية قد انحطت منزلتها حتى كادت تصبح ولاية زراعية محضة من الولايات التى تمد رومة الجائعة بالطعام . وكان الجزء الأكبر من أرضها الصالحة للفلاحة قد جعل ضياعا كبرى لتربية الماشية ، يرعاها عبيد لا ينالون إلا أقل الغذاء والكساء ، وكثيراً ما كانوا يفرون من عملهم لهذا السبب ويؤلفون عصابات للسلب والنهب . وكان سكانها فى عهد أغسطس يبلغون ٧٥٠ر٠٠٠ ، (وقد بلغوا فى عام ١٩٣٠ حوالى ٣ر٩٧٢ر٠٠٠) . وكانت أكثر مدنها الخمس والستين ازدهاراً هى قطانيا Catania ، وسرقوسة ، وتورومينيوم Touromenium (تورمينا Taormina الحالية) ، ومسانا ، وأجرجنتم ، وپنورمس Panormus (پلرمو الحالية) . وكان فى سرقوسة وتورمينيوم ملهيان يونانيان فخمان ، لا يزالان يستخدمان لهذا الغرض حتى الآن . وكانت سرقوسة ، على الرغم مما أصابها من النهب على يدى ڤريس Verres مملوءة بالمبانى الرائعة ، والتماثيل الشهيرة ، والمواقع التاريخية بدرجة يسرت العيش للأدلاء المحترفين الذين كانوا يصحبون السياح الكثيرين الوافدين إلى تلك الجزيرة(٦) ، وكان شيشرون يحسبها أجمل مدينة فى العالم كله . وكان لمعظم الأسر الغنية ضياع أو بساتين فى

ضواحيها وكان جميع ريفها تعطره أشجار الفاكهة والكروم كما تعطره فى هذه الأيام .

وعاد على أفريقية كل ما فقدته صقلية بسيطرة الرومان عليها ، فقد أخذت تحل شيئاً فشيئاً محل تلك الجزيرة فى توريد الحبوب مكرهة إلى رومة ، ولكن الجنود ، والمستعمرين ، ورجال الأعمال ، والمهندسين الرومان جعلوا تلك الولاية جنة وارفة الظلال إلى حد لا يكاد يصدقه العقل . وما من شك فى أن الفاتحين الجدد قد وجدوا فيها حين قدموا إليها أصقاعاً خصبة غنية ؛ فقد كان بين الجبال العابسة المطلة على البحر الأبيض المتوسط وسلسلة جبال أطلس التى تصد عنها رمال الصحراء واد شبه مدارى يمده نهر بجرداس Bagradas (مجردا) بكفايته من الماء ؛ وكانت الأمطار تهطل فيها شهرين من السنة لتعوض الأهلين عن عملهم الزراعى الشاق الطويل الذى علمهم إياه ماجو Mago وأرغمهم عليه ماسينسا Masinissa . ولكن رومة أصلحت ما وجدته فيها من الأساليب الزراعية وزادت عليه . فقد شاد مهندسوها السدود على مجارى الأنهار التى تنحدر من التلال الجنوبية ، واختزنوا الزائد من المياه فى خزانات إبان موسم الأمطار ، وصبوه فى قنوات للرى فى الأشهر الحارة التى تجف فيها مياه الأنهار[٧] . ولم تكن رومة تفرض على هذه الولايات أكثر مما كان يجبيه منها رؤساؤها الوطنيون ، ولكن فيالق رومة وتحصيناتها كانت أقدر من حكوماتها الوطنية على حمايتها من القبائل البدوية التى تهبط عليها من الجبال ؛ وكان يضم إليها ميل بعد ميل من الصحراء أو الأراضى البور فتزرع أو تسكن . وكان الوادى ينتج كميات من زيت الزيتون بلغت من الوفرة حداً أدهش العرب حين قدموا إلى هذه البلاد فى القرن السابع ، إذ وجدوا أن فى وسعهم أن ينتقلوا من طرابلس إلى طنجة دون أن يبتعدوا عن ظلال أشجار الزيتون[٨] . وأخذت البلدان والمدن يتضاعف عددها ويرتفع شأنها بفضل ما اتبع فيها من الأساليب المعمارية ،

ووجدت الآداب فيها صوتاً جديدا يعبر عنها . وحسبنا دليلا على ما بلغته أفريقية الرومانية من الرقى والثراء أن نشاهد آثار ما خلفه الرومان من أسواق وهياكل وقنوات بلحر مياه الشرب للمدن ، ودور للتمثيل فى أرض أصبحت الآن قفراً يباباً . ذلك أن هذه الحقول النادرة قد استحالت الآن صحارى رملية ، ولم يكن سبب هذا تغير الجو بل كان سببه تبدل الحكم — من دولة تضمن للبلاد الأمن الاقتصادى والنظام إلى أخرى تركت العنان للفوضى والإهمال يخربان الطرق والخزانات وقنوات الرى .

وكان على رأس هذا الرخاء المستعاد مدينة قرطاجنة التى بعثت وقتئذ بعثاً جديداً . ذلك أن أغسطس قد احتضن بعد موقعة أكتيوم مشروع كيوس وقيصر الذى أخفق من قبل ، وأرسل إلى قرطاجنة بعض الجنود الذين أراد أن يعوضهم عن إخلاصهم وانتصاراتهم أرضاً يهبها لهم ليستعمروها . وسرعان ما انتزعت قرطاجنة مرة أخرى من يتكا تجارة الإقليم الصادرة منه والواردة إليه ، وذلك بفضل موقعها الجغرافى الممتاز ، ومرفئها الجيد ، ووادى نهر مجرداس الخصبة ، والطرق الصالحة التى أنشأها المهندسون الرومان أو أعادوا فتحها ؛ ولم يمض على تأسيس المدينة الجديدة قرن واحد حتى أضحت أكبر مدائن الولايات الغربية ، وأقام أغنياء التجار والملاك قصوراً فخمة على تل برسا Byrsa التاريخى ، أو بيوتاً صغيرة ذات حدائق فى الضواحى الشجراء ؛ أما الفلاحون الذين تركوا الأرض لعجزهم عن منافسة أصحاب الضياع الكبرى فقد انضموا إلى صعاليك المدن وإلى الأرقاء ، وعاشوا فى أحياء وبيوت قذرة حياة العدم والفاقة التى جعلتهم يرحبون فيما بعد بدعوة المسيحية إلى المساواة . وقامت البيوت فى المدينة من ست طبقات أو سبع ، وتلألأ الرخام فى المبانى العامة ، وغصت الشوارع والميادين بالتماثيل المنحوتة على الطراز اليونانى . وشيدت الهياكل من جديد لآلهة القرطاجنيين القديمة ، وظل ملكارت Melkart حتى القرن الثانى بعد الميلاد يستمتع بالضحايا

من أطفال الأحياء[٩] . وأخذ أهل البلاد ينافسون الرومان فى حب الترف ، وأدهان التجميل ، والحلى ، والشعر المصبوغ ، وسباق العربات ، وألعاب المجالدين . وكان من بين المناظر البارزة فى المدينة حماماتها العامة العظيمة التى وهبها لها ماركس أورليوس . وكانت فيها قاعات للمحاضرات ، ومدارس لتعليم البيان ، والفلسفة ، والطب ، والقانون ، مما جعل قرطاجنة مدينة جامعية لا يفوقها من هذه الناحية إلا أثينة والإسكندرية ؛ ووفد إليها أپوليوس Apuleius وترتليان Tertullian ليدرسا فيها جميع فروع العلم ، وقد دهش القديس أوغسطين من مرح الطلاب وفساد أخلاقهم ، فقد كان يحلو لهم أن يقتحموا قاعات المحاضرات ويخرجوا منها الأستاذ وتلاميذه[١٠] .

وكانت قرطاجنة حاضرة الولاية المسماة أفريقية ومحلها الآن شرّ بلاد تونس . ونشأ من رواج التجارة فى جنوبى هذه المدينة على الشاطئ الشرقى طائفة من المدن أخذت ثروتها القديمة تعود إليها بعد اثنى عشر قرناً من الزمان حتى دهمتها الحروب فى هذه الأيام ، ومن هذه المدن القديمة حضرمنتم Hadrumentum (ومحلها الآن سوسة) وليپتس Leptes الصغرى ، وثپسوس Thapsus وتكاپى Tacapae (قابس الحالية) . وكان إلى شرقيها على البحر الأبيض إقليم يدعى تريپوليس Tripolis (طرابلس) وسمى كذلك لأنه حلف مكون من ثلاث مدن : أويا Oea (طرابلس الحالية) التى أسسها الفينيقيون قبيل عام ٩٠٠ ق . م ، وسبراتا Sabrata وليپتس مجنا (الكبرى) (لبدة الحالية) : وهذه البلدة الأخيرة هى مسقط رأس الإمبراطور سپتميوس سفيرس Septimius Severus فقد ولد فيها عام ١٤٦م ؛ ووهبها فى حياته باسلقا وحماما عاما تدهش آثاره السائح أو المحارب فى هذه الأيام . وكانت طرق مرصوفة تسير عليها قوافل الإبل تصل هذه الثغور بالمدن الداخلية : سفتولا Safetula وهى الآن قرية صغيرة بها آثار هيكل رومانى عظيم ، وثسدروس Thysdrus (الجم) ، وكان فيها مدرج

يتسع لستين ألفاً ، وثجا Thugga (دجا) التى تشهد خرائب ملهاها ذى الصدد الكورنثية الرشيقة بثراء أهلها وحسن ذوقهم .

وكانت فى شمال قرطاجنة أمها ومنافستها القوية يتكا Utica ، وفى وسعنا أن نلمح ما كانت عليه من ثراء فى عهد الرومان ، إذا عرفنا أن ثلثمائة من رجال المصارف وبائعى الجملة من الرومان كانت لهم فروع فيها عام ٤٦ ق . م . وكان الإقليم التابع لها يمتد شمالاً إلى هپو ديرهيتس Hippo Diarhytus بنزرت الحيالية) ، وكان يمتد فيها طريق محاذ لشاطئ البحر متجه نحو الغرب يصلها بمدينة هپو رجيوس Hippo Regius (بونه) ، التى أضحت بعد زمن قليل كرسى أبرشية القديس أوغسطين . وكان إلى جنوبيها فى الداخل مدينة سرتة Cirta (قسطنطينية) عاصمة ولاية نوميديا ، وفى غرب هذه المدينة الأخيرة بلدة ثمجادى Thomugadi (ثمجاد) ، التى تكاد تحتفظ بآثارها احتفاظ بمپى ؛ ففيها الشوارع المرصوفة المعمدة ، والمجارى المسقفة ، وفيها قوس نصر ظريف ، وسوق عامة ، وبناء مجلس الشيوخ ، وباسلقا ، وهياكل ، وحمامات ، وملهى ، ومكتبة ، وبيوت خاصة كثيرة . وقد عثر فى أرض السوق على لوحة للعب الداما نقشت عليها هذه العبارة : Venari, lavari. ludere, rider, hoc est vivere — ومعناها : « الصيد ، والاستحمام ، واللعب ، والضحك ، هذه هى الحياة »(١٢) ؛ والفيلق الثالث الذى كان وحده يحرس الولايات الأفريقية هو الذى أنشأ ثمجادى حوالى عام ١١٧ م . ثم اتخذ فى عام ١٢٣ مركزاً بقيادته يقيم فيه أكثر مما يقيم فى ثمجادى ويبعد عنها بضعة أميال نحو الغرب ، وأنشأ فيه مدينة لمبيسس Lambaesis (لمبز) . وهنا تزوج الجنود واستقروا ، وعاشوا فى بيوتهم أكثر مما كانوا يعيشون فى المعسكر . ولكن معسكرهم نفسه كان مرحاً — فخماً ، جميل الزينة ، به حمامات لا تقل فى جمالها عن أية حمامات أخرى فى أفريقية . أما فى خارج المعسكر فقد أعانوا الأهلين فى بناء هيكل لجوپتر ، وعدد من الهياكل ، وأقواس النصر ، ومدرج

يقام فيه الصراع ويحدث فيه الموت فيخففان من ملل الحياة السلمية الرتيبة .

وكان الذى مكن فيلقاً واحداً من حماية أفريقية الشمالية من القبائل المغيرة الضارية فى الداخل هو إنشاء شبكة من الطرق ، كان الغرض الأول منها عسكريا ولكنها كانت عظيمة النفع من الناحية التجارية . وكانت تربط قرطاجنة بالمحيط الأطلنطى ، والصحراء بالبحر الأبيض المتوسط . وكان الطريق الرئيسى يتجه نحو الغرب من سرتة إلى قيصرية عاصمة موريتانيا (مراكش) ؛ وهنا نشر الملك چوبا الثانى Juba II أساليب الحضارة بين الموری Mauri أى السود (المغاربة) الذين اشتق من اسمهم اسم الإقليم فى الزمن القديم واسمه فى هذه الأيام . وكان چوبا الثانى هذا ابن چوبا الذى مات فى ثبسوس ، وأخذ وهو طفل إلى رومة ليزدان به موكب قيصر ؛ ثم عنى عنه ، وأخذ يدرس فى رومة حتى أصبح من جهابذة العلماء فى أيامه . وعيّنه أغسطس قيلا على موريتانيا وأمره أن ينشر بين بنى وطنه الثقافة الرومانية التى جد فى تحصيلها . ونجح فى هذه المهمة ، وكان من أسباب نجاحه أن امتد حكمه ثمانية وأربعين عاما ؛ ولشد ما كانت دهشة رعاياه حين رأوا رجلا يكتب الكتب ويحكم . وجاء كلجيولا بابن چوبا هذا إلى رومة وأماته جوعاً ، وضم كلوديوس مملكته إلى رومة وقسمها ولايتين : موريتانيا سيزرينسس Caesariensis (موريتانيا القيصرية) وموريتانيا تنجتانا Tingitana (موريتانيا التنجتانية) نسبة إلى عاصمتها تنجيس Tingis وهى طنجة الحالية .

وكان فى هذه المدن الأفريقية مدارس كثيرة مفتحة الأبواب للفقراء والأغنياء على السواء . نسمع أنه كان يدرس فيها الاختزال[١٣] ، ويسمى چوڤنال أفريقية مربية المحامين[١٤] . وقد أنجبت فى هذا العهد مؤلفين أحدهما صغير والآخر كبير — هما فرنتو وأپوليوس . ولكن الأدب الأفريقى لم تكن له الزعامة على آداب العالم إلا أيام مجده فى عهد المسيحية . وكان اوسيوس أپوليوس شخصية غريبة جديرة بالتصوير ، أكثر من شخصية منتانى المتعدد الكفايات وكان مولده فى

مدورا Madaura من أسرة عريقة النسب (١٢٤ م) ، وقد درس فيها وفى قرطاجنة وأثينة ، وبدد ثروة كبيرة ورثها عن أسرته ، وأخذ يتنقل من مدينة إلى مدينة ومن دين إلى دين ، وانضم إلى الجماعات ذات الطقوس الدينية الخفية ومارس السحر وألف كتباً كثيرة فى موضوعات تختلف من اللاهوت إلى مسحوق الأسنان ، وألقى محاضرات فى الفلسفة والدين فى رومة وغيرها من المدن ، ثم عاد إلى أفريقية وتزوج فى طرابلس من سيدة تكبره وتفوقه فى الثراء . فلما فعل هذا رفع أصدقاؤها وورثتها المنتظرون الأمر إلى القضاء مطالبين بإلغاء الزواج ، واتهموه بأنه حصل على موافقة السيدة عليه بفنون السحر ؛ ودافع الرجل عن نفسه أمام المحكمة بخطبة وصلت إلينا بعد أن أدخل عليها بعد أيامه كثير من الصقل والتنميق ، وكانت نتيجتها أن كسب القضية والزوجة ، ولكن الناس أصروا على الاعتقاد بأنه ساحر ؛ ولما ظهر المسيح أخذ خلفاء هؤلاء القوم يحطون من قدره بتعداد معجزات أبوليوس . وقضى الرجل بقية حياته فى مدورا وقرطاجنة يمارس صناعتى المحاماة والطب ، وكتابة الرسائل والخطب ، ولكن معظم ما كتب كان فى الموضوعات العلمية والطبيعية ، وقد أقامت له مدينته نصباً تذكاريا نقشت عليه باللاتينية العبارة الآتية : **الفيلسوف الأفلاطونى** ، ولو أنه استطاع العودة إلى الحياة لساءه ألا يذكره الناس إلا بكتابه **الحمار الذهبى** .

وهذا كتاب شبيه كل الشبه بكتاب **ساتريكون** Satyricon لمؤلفه بترونيوس ، بل هو أكثر منه غرابة وشذوذاً . وكان الاسم الأول لهذا الكتاب هو **أحد عشر كتابا فى التحول** Metamorphoseon Lebri XI ، وهو توسع غريب فى قصة رواها لوسيوس البتراسى عن رجل انقلب حماراً . ويتألف من سلسلة غير مرتبطة من المغامرات ، والوصف ، والحوادث المحشورة فيها حشراً ، يتخللها السحر ، والرعب ، والفحش فى القول ، والحديث عن التقوى المرجأة .

ويروى لوسيوس بطل القصة كيف طاف بتساليا واستمتع فيها بعدد من الفتيات وألفى نفسه أينما حل فى جو من السحر. ومما جاء فى هذا الكتاب :

« وما كاد الليل ينقضى ويبزغ فجر يوم جديد حتى كان من حظى أن أستيقظ ، وأن أقوم من فراشى وأنا نصف مذهول ، راغب حقاً فى أن أعرف وأرى أشياء عجيبة محيرة . . . والحق أنى لم أكن أرى شيئاً أعتقد أنه كما أراه فى الواقع ؛ بل إن كل شىء بدا لى أنه قد تحول إلى صور أخرى بتأثير قوة السحر الخبيثة . وبلغ من قوة اعتقادى هذا أن ظننت أن الحجارة التى قد تعثر بها قدماى تصلبت واستحالت من رجال إلى الصورة التى هى عليها ، وأن الطيور التى سمعتها تغرد ، والأشجار والمياه الجارية ، استحالت إلى هذا الريش والورق ومنابع الماء ، من صور أخرى غير هذه الصور . وكذلك ظننت أن التماثيل والصور ستتحرك فى مستقبل الأيام ، وأن الجدران ستتكلم وتروى أخباراً عجيبة ، وإنى سأسمع من فورى وحياً من السماء ومن شعاع الشمس(١٥) .

والآن وقد أصبح لوسيوس مستعداً لأية مغامرة بريدها ، يقول إنه يدلك جسمه بمرهم سحرى ، وهو شديد الرغبة فى أن يستحيل طائراً ؛ ولكنه حين يدلك نفسه بهذا المرهم يستحيل حماراً . وتروى القصة بعدئذ ما يلقاه من المحن ذلك الحمار « الذى له إحساس الإنسان وإدراكه » . وكانت سلواه الوحيدة هى « أذنى الطويلتين اللتين أستطيع بهما أن أسمع كل شىء ولو كان شديد البعد عنى » . وقد قيل له إنه سيعود إلى صورته الآدمية إذا عثر على وردة وأكلها ، وهى أمنية يدركها بعد أن يمر بطائفة كبيرة من الحظوظ الحمارية منها ما هو طيب ومنها ما هو سيئ . ثم كره الحياة ، فلجأ أولا إلى الفلسفة ، ثم إلى الدين ، وألف دعاء يشكر فيه إيزيس شكراً بينه وبين ابتهال المسيحيين إلى أم الإله شبه عجيب(١٦) . ثم يحلق رأسه ويقبل فى الطبقة الثالثة من أتباع إيزيس المبتدئين . ويرصف طريقاً يعود به إلى الأرض بعد أن يفسر حلماً يأمره فيه أوزريس « أعظم الآلهة » بأن يعود إلى وطنه ويشتغل بالقانون .

وما أقل الكتب التى تحوى كل ما يحتويه هذا الكتاب من السخف ، ولكن أقل منها ما يعبر عن سخفه بعبارة تماثل عبارة هذا الكتاب فى طلاوتها ، ذلك أن أپوليوس يحاول فيه كل أنواع الأساليب ، ويلبس كل أسلوب حاوله أجمل لباس ؛ وأكثر ما يحبه من الأساليب هو الأسلوب المطنب المنمق المسجوع المتجانس الأحرف فى بداية الألفاظ ، الملىء بالعبارات العامية الطريفة . والألفاظ القديمة المهجورة ، والكلمات المصغرة العاطفية ، والنثر الموزون والشعرى فى بعض المواضع . وقصارى القول أن الكتاب يضم إلى الأسلوب الشرقى القوى ما فى الشرق من غموض وشهوانية(*) . واعل أپوليوس قد أراد أن يشير من طرف خفى ، مستنداً إلى تجاربه الخاصة ، إلى أن الانهماك فى الشهوة الجنسية يذهب بالعقل ويبدل الآدميين بهائم ، وإلى أن السبيل الوحيدة التى يعودون بها إلى آدميتهم هى اقتطاف زهرة الحكمة والصلاح . وهو يبدو أحسن ما يكون فى القصص العارضة التى يلتقطها بأذنيه القويتين الدوارتين ، كما نرى فى قصة العجوز التى تسلى فتاة بأن تروى لها قصة كيوپد وسيكى(١٧) — فتخبرها كيف وقع ابن الزهرة (ڤينوس) فى حب فتاة حسناء ، وهيأ لها كل أنواع السرور إلا سرورها برؤيته ، وأثار غيرة أمه الشديدة ، ثم نالت آخر الأمر سعادتها فى السموات العلى . ولسنا نعرف مصوراً ، بز بقلمه لسان هذا الأشيب السليط ، فى رواية هذه القصة القديمة .

(*) لسنا ندرى لم يصف المؤلف الشرق بالشهوانية وأية شهوانيـة فى الشرق تفوق ما وصف به هو نفسه عصر نيرون وغيره من الأباطرة فى هذا الكتاب . (المترجم)

الامبراطورية الرومانية في عهد تراجان

الفصل الثالث

أسپانيا

إذا عبرنا المضيق من طنجة انتقلنا من ولاية من أقدم ولايات رومة إلى ولاية من أحدثها . وتقع أسپانيا فى موقع عظيم الخطر من الناحية الحربية ، عند مدخل البحر الأبيض المتوسط ؛ وفى جوف أرضها معادن ثمينة كانت نعمة عليها ونقمة رزت أرضها بدماء الشره ، وتخترقها سلاسل الجبال التى تعوق سبل الاتصال ، وامتزاج السكان ووحدتهم . وقد أحست أسپانيا بحمى الحياة الشديدة من اليوم الذى كان فيه الفنانون فى العصر الحجرى القديم يصورون الثور الوحشى (البيزون) على جدران الكهوف فى ألتميرا إلى أيامنا الحاضرة المضطربة . ولقد ظل الأسپان ثلاثين قرناً شعباً حربياً ذا عزة وأنفة ، وأجسام نحيلة قوية ، وشجاعة وجلد ؛ وكانوا ولا يزالون صلاب الرأى ، أقوياء العاطفة ، يمتازون بالزراعة والاكتئاب ، والاقتصاد وكرم الضيافة ، والمجاملة والمروءة ، يسهل استثارة بغضهم ، ويسهل أكثر من هذا استثارة حبهم ، ولما جاء الرومان إلى بلادهم وجدوا فيها سكانا يتألفون حتى فى ذلك الوقت البعيد من أجناس مختلفة يتعذر فصل بعضها عن بعض : منهم الإمبيريون من أفريقية ، واللجوريون من إيطاليا ، والكلت من غالة ، وعلى رأسهم طبقة من القرطاجنيين . وإذا جاز انا أن نصدق الرومان الذين فتحوا بلادهم قلنا إن الأسپان كانوا قبل الفتح الرومانى شعباً قريبا من الهمجية ، يعيش بعضه فى مدن وبيوت ، وبعضه فى قرى وأكواخ وكهوف ، ينام على أرض الحجرات أو على الطين ، ويغسل أسنانه بالبول المعتق[١٨] . وكان الرجال يلبسون عباءات سوداء والنساء يرتدين « مآزر طوالا

وجلابيب زاهية الألوان » ، ويضيف استرابون إلى هذا قوله فى سياق اللوم والتأنيب « إن النساء يرقصن مع الرجال ويمسكنهم بالأيدى[١٩] » .

وقد أنشأ سكان جنوبى أسپانيا الشرقى — فى ترتسوس وهى ترشيش Tarshish الفينيقية — حوالى عام ٢٠٠٠ ق . م صناعة البرنز ، وكانوا يبيعون منتجاتها فى جميع بلاد البحر الأبيض المتوسط . وأنشأت ترتسوس على أساس هذه الصناعة ، فى القرن السادس قبل الميلاد ، أدبا وفنا قال أهلها إن عمرها كان فى ذلك الوقت يبلغ ستة آلاف عام . على أنه لم يبق من آثار هذا الفن سوى بضعة تماثيل فجة وتمثال نصفى متعدد الألوان منحوت من حجر الخرسان ، وتمثال إلكى Elche المشابه للتماثيل اليونانية والمنحوت على نمط كلتى قوى فياض . وشرع الفينيقيون حوالى عام ١٠٠٠ ق . م يبحثون عن ثروة أسپانيا المعدنية ، ولم يحل عام ٨٠٠ حتى استولوا على قادس ومالقه Malaga وشادوا فيهما هيكلين عظيمين . ثم استقر المستعمرون اليونان حوالى عام ٥٠٠ ق . م على الساحل الجنوبى الشرقى ، وفى ذلك الوقت عينه أو حواليه استعان الفينيقيون ببنى عمومتهم القرطاجنيين لإخماد ثورة فى البلاد ففتحوا ترتسوس وجميع أسپانيا الجنوبية والشرقية ، وكان من أثر استغلال القرطاجنيين لشبه الجزيرة استغلالا سريعا بين الحرب البونية الأولى والثانية أن فتح الرومان أعينهم على ما فى البلاد التى يسمونها « أيبيريا » من موارد ثروة غنية ، فكان تحرك سپيو إلى أسپانيا هو الذى قضى آخر الأمر على انقضاض هنيبال على إيطاليا . ودافعت القبائل الأسپانية المفككة عن استقلالها دفاع الأبطال ، فكان النساء يفضلن قتل أبنائهن على وقوعهم أسرى فى أيدى الرومان ، وكان الأسرى من الرجال ينشدون أغانيهم الحربية وهم يموتون مصلوبين[٢٠] . وتطلب فتح أسپانيا مائتى عام ، ولكنها بعد أن تم فتحها كانت دعامة للدولة أقوى من معظم الولايات : وأحل ولدا جراكس ، وقيصر ، وأغسطس سياسة المجاملة والاحترام محل سياسة القسوة التى كانت تجرى عليها الجمهورية

وأثمرت السياسة الجديدة أحسن الثمرات وأدومها ، فأخذت البلاد تصطبغ اصطباغاً سريعاً بالصبغة الرومانية ، واتخذ الأهلون اللاتينية لغة لهم بعد أن كيفوها بما يلائم طبيعتهم ، ونمت اقتصاديات البلاد واتسعت ، وأخذت تمد رومة بالشعراء ، والفلاسفة ، وأعضاء مجلس الشيوخ والأباطرة .

وظلت أسپانيا الدعامة الاقتصادية للإمبراطورية من أيام سنكا إلى عهد أورليوس ، فأغنت المعادن الإسپانية رومة كما أغنت من قبل صور ثم قرطاجنة ؛ وكانت لإيطاليا كما كانت بلاد المكسيك وپيرو لها هي فيما بعد . فاستخرج من أرضها الذهب ، والفضة ، والنحاس ، والقصدير ، والحديد ، والرصاص . وبذل فيها من العناية والدقة ما يبذل فى استخراجها فى هذه الأيام . ولا يزال وسع المرء أن يرى فى هذه الأيام مناجم عند ريو تنتو Rio Tinto بعيدة القرار محفورة فى صخور الكوارتز الصماء ، ويشاهد فضلات من الصخور باقية من أيام الرومان ولم يبق فيها إلا نسبة من النحاس يدهش الإنسان من ضآلتها . وكان الأرقاء والأسرى يعملون فى هذه المناجم يوما بعد يوم ، وكثيراً ما كانوا يقضون الشهور الطوال دون أن ترى أعينهم ضوء الشمس(٢٢) . ونشأت بجوار المناجم صناعات معدنية عظيمة . وكانت أرض أسپانيا فى هذه الأثناء رغم ما فيها من جبال وقنوات جدباء تخرج الحلفاء التى تصنع منها الحبال الرفيعة والسميكة ، والسلال ، والفرش ، والأخفاف ، وتغذى الضأن وتخرج صناعة الصوف الذائعة الصيت ، وتمد الإمبراطورية بأحسن ما عرفه الأقدمون من أنواع الخمور وزيت الزيتون . وكانت أنهار الوادى الكبير والتاجه والإبرة وغيرها من المجارى التى هى أصغر منها تساعد شبكة الطرق الرومانية على حمل غلات أسپانيا إلى ثغورها وإلى مدنها التى يخطئها الحصر .

والحق أن أعظم النتائج التى تمخض عنها الحكم الرومانى فى هذه البلاد نتيجة تمتاز بها الإمبراطورية الرومانية على سائر الإمبراطوريات وهى تضاعف عدد المدن أو اتساع رقعتها : فقد كان فى ولاية بيتكا Baetica (الأندلس Andalusia

الحديثة) مدائن كارتيا Carteia (الجسر) ومندا (Munda) ومالقة ، وإيطاليكا (مسقط رأس تراجان وهدريان) ، وقرطبة ، وهسپالس (أشبيلية) ، وقادس . ونشأت قرطبة فى عام ١٥٢ ق . م ، وكانت مركزاً أدبياً عظيما واشتهرت بما فيها من مدارس لتعليم فنون البلاغة ، وفيها ولد لوكان ، وسنكا الأكبر والأصغر ، وجليو Gallio محرر القديس بولس . وقد احتفظت هذه المدينة بتقاليدها العلمية حتى العصور الوسطى ، وبفضلها كانت قرطبة أعظم مدن أوربا علما . وكانت قادس أكثر مدائن أسبانيا سكانا ، وكانت غنية غنى فاحشاً . ذلك أنها لوقوعها عند مصب نهر الوادى الكبير كانت تسيطر على تجارة المحيط الأطلنطى مع غرب أفريقية ، وأسبانيا ، وغاله ، وبريطانيا ؛ وقد أضافت فتياتها الراقصات الرشيقات قدراً لا بأس به إلى شهرتها .

وكانت بلاد البرتغال تعرف عند الرومان باسم لوزتانيا Lusitania . كما كانت لشبونة تعرف عندهم باسم أولزيپو Olisipo . وأقام مهندسو تراجان جسراً على نهر التاجة عند نوربا قيصرينة Norba Caesarena (التى أطلق عليها العرب اسمها الحديث القنطرة) هو أكمل جسر رومانى بقى على حالته حتى اليوم . ولا تزال عقوده الفخمة التى يبلغ اتساعها مائة قدم والتى تعلو مائة وثمانين قدما فوق قاع النهر ، تحمل طريقا من أربعة دروب كثير الحركه . وكانت عاصمة لوزتانيا هى مدينة إمرينا (مريده Mérida) وكانت تزهو بما فيها من تماثيل كثيرة ، وبثلاث قنوات لجر مياه الشرب ، وبحلبة للألعاب ، ودار للتمثيل ، وبحيرة لتمثيل المعارك البحرية ، وقنطرة طولها ٢٥٠٠ قدم . وكان إلى شرقيها فى ولاية تراكنسس Tarraconensis مدينة سجوڤيا Segovia التى لا تزال تستمتع بالمياه النقية تحملها إليها قناة أنشئت فى عهد تراجان . وكان إلى جنوبها مدينة طليطم (طليطلة Toledo الحديثة) التى اشتهرت فى عهد الرومان بما فيها من مصانع الحديد ، وقامت على الساحل الشرقى مدينة نوڤا كرثاجو Nova Carthago

(قرطاجنة الحديثة) التى أثرت من مناجمها ، ومصائد سمكها ، وتجارتها وكان فى البحر الأبيض بالقرب من أسپانيا جزائر البليار ، وكانت فيها مدينتا بلما Palma ، وپولنتا Pollentia . وكانتا فى ذلك العهد مدينتين قديمتين مزدهرتين . وكان على الساحل الشرقى نحو الشمال مدائن بلنسية ، وتراكو Tarraés (Tarragona) (طرقونة) وبرسينو (برشلونة) ، وكان إلى جنوب جبال البرانس مباشرة بلدة إمپوريا Emporiae القديمة : فإذا ما سار المسافر سفينته مسافة قليلة حول حافة الجبال الشرقية ألفى نفسه فى بلاد غالة .

الفصل الرابع

غالـــة

لقد كان فى مقدور جميع السفن ذات الحمولة المتوسطة ، بما فيها سفن المحيطات ، أن تسير فى تلك الأيام فى نهر الرون من مرسيليا إلى ليون . أما القوارب الصغيرة فكانت تستطيع مواصلة السير إلى ما يقرب من أربعين ميلا من نهر الرون الأعلى . فإذا نقلت البضائع بعد ذلك مسافة قصيرة فوق أرض مستوية استطاع الناس بعدها أن ينقلوها بالسفن مارة بمائة مدينة وألف قصر صغير إلى بحر الشمال . وكانت قفزات أرضية شبيهة بهذه القفزة تؤدى من الرون والساؤون إلى اللوار وإلى المحيط الأطلنطى ، ومن الأود Aude إلى الجارون وبردو ، ومن الساؤون إلى السين وبحر المانش : وكانت التجارة تسير فى هذه الطرق المائية ، ونشأت بفضلها مدائن عند ملتقاها ، وكانت فرنسا ، كما كانت مصر ، هبة مجاريها المائية .

ويمكن القول إن الحضارة الفرنسية — بأحد المعانى التى يمكن أن تفهم من لفظ الحضارة — بدأت منذ أيام « الرجل الأوريناسى Ourignacian man » أى قبل ميلاد المسيح بثلاثين ألف عام ، فقد كان فى هذا الوقت البعيد ، كما تدل كهوف منتنياك Montignac ، فنانون يستطيعون أن يصوروا بالألوان الزاهية والخطوط الواضحة . ثم انتقلت فرنسا حوالى عام ١٢٠٠٠ ق.م من ذلك العصر الحجرى القديم ، عصر الصيد والرعى ، إلى حياة الاستقرار وفلح الأرض فى العصر الحجرى الحديث ، وانتقلت منه بعد عشرة آلاف عام طوال إلى عصر البرنز . وحوالى عام ٩٠٠ ق.م أخذ جنس جديد هو الجنس « الألبى » المستدير الرؤوس يتسرب إلى البلاد من ألمانيا ، وينتشر فى فرنسا ، ومنها إلى بريطانيا وأيرلندة .

ثم ينزل إلى أسبانيا . وجاء هؤلاء « الكلت » معهم بثقافة هولستات Hallstatt الحديدية من النمسا . ثم استوردوا من سويسرا حوالى عام ٥٥٠ ق . م فن لاتين La Téne فى صناعة الحديد ، وكان قد تقدم تقدماً كبيراً فى سويسرا . وسمت رومة فرنسا أول ما عرفتها باسم كلتيكا Celtica ولم يتغير هذا الاسم إلى غالة Gallia إلا فى عهد قيصر .

وغلب المهاجرون أهل البلاد أو فاقوهم فى عددهم ، واستقروا قبائل مستقلة لا تزال أسماؤها تنم عليها المدن التى شادوها(*) . ويقول قيصر إن الغاليين كانوا قوما طوال القامة ، أقوياء الأجسام ظاهرى العضلات(٢٣) ، يمشطون شعرهم الغزير الأشقر ويرسلونه خلف رؤوسهم وعلى أقفيتهم ، وكان بعضهم يطيلون لحاهم ، والكثيرون منهم يتركون شواربهم تتثنى حول أفواههم . وقد نقلوا معهم من بلاد الشرق ، وربما كان ذلك عن الإيرانيين الأقدمين ، عادة لبس السراويل القصيرة ، وأضافوا هم إليها رداء مصبوغا بألوان كثيرة ومطرزا بالأزهار ، ومن فوقه عباءة مخططة تتدلى من الكتفين . وكانوا مولعين بالجواهر ، ويتزينون فى الحروب بالحلى الذهبية — إن لم يكن عندهم ما هو أثمن منها(٢٤) . وكانوا يكثرون من أكل اللحم ، وشرب الجعة ، والخمر غير المخفف بالماء ، لأنهم كانوا « سكيرين بفطرتهم » إذا جاز لنا أن نصدق أپيان(٢٥) . ويصفهم استرابون بأنهم قوم « سذج ، ذوو شمم وكبرياء . . . لا يطيقهم أحد إذا انتصروا ، وتطير نفوسهم شعاعا إذا غُلبوا »(٢٦) . ولكن علينا ألا نثق كل الثقة بهذه الأقوال لأنه ليس من الخير

(*) منهم الأمبيانى Ampiani فى أمين Amiens ، والبلوفاكى Bellovaci فى بوڤيه Beauvais والبتيوريج Bituriges فى بورج Bourge والكرنوت Carnutes فى شارتر Charteres والپاريسى فى باريس ، والبكتون Pictones فى پواتييه ، والريمى Remi فى ريمس Rheims والسنون Senones فى سن Sens والسوسيون Suessiones فى سواسون Soissons الخ .

فى كل الأحوال أن يكتب عن الناس أعداؤهم . وقد اشمأزت نفس يوسيدونيوس حين رآهم يعلقون رؤوس أعدائهم بعد فصلها عن أجسامهم فى رقاب جيادهم(٢٧) . وكان يسهل استثارتهم للجدل والقتال ، وكانوا فى بعض الأحيان يسلون أنفسهم فى المآدب بأن يتبارزوا حتى يقتل بعضهم بعضا . ويقول عنهم قيصر : « إنهم كانوا أكفاء لنا فى الشجاعة وفى التحمس للحرب(٢٨) ، ويصفهم أميانس مرسلينس Ammianus Marcellinus بأنهم :

« مهما تكن سنهم يليقون للخدمة العسكرية ، فالشيخ منهم يخرج للحرب وهو لا يقل شجاعة عن الشاب فى مقتبل العمر . . . والحق أن سريه كاملة من الأجانب لتعجز عن الوقوف فى وجه غالى واحد إذا دعا زوجته إلى تأييده ، وهى فى العادة أشد منه بأساً وأعظم شراسة ، وخاصة إذا نفخت عنقها ، وعضت على أسنانها ، ولوحت بذراعيها الضخمتين ، وشرعت تكيل الضربات بيديها وقدميها كأنها حجارة تقذف من منجنيق » .

وكان الغاليون يؤمنون بآلهة كثيرة ، نسى الناس كل أمرها فلا ضير علينا إذا لم نذكر أسماءها . وكان اعتقادهم بحياة سعيدة فى الدار الآخرة قويا إلى حد حمل قيصر على الحكم بأن هذا الإيمان كان له أكبر الأثر فى شجاعة الغاليين . ويقول ڤاليريوس مكسمس : إن قوة هذه العقيدة كانت تدفع رجالهم إلى أن يقرضوا المال على أن يرد إليهم فى الدار الآخرة ، ويقول لسيدونيوس إنه رأى الغاليين فى إحدى الجنازات يكتبون الرسائل إلى أصدقائهم المتوفين ويلقون بها على كومة الحريق حتى يحملها الميت إلى المرسلة إليهم(٣٠) ؛ وليتنا نستطيع أن نستمتع برأى رجل غالى فى هذه القصص الرومانية . وكان كهنتهم يشرفون على جميع شئون التعليم ، ويعنون كل العناية بغرس العقيدة الدينية فى نفوس المتعلمين ؛ وكانوا يقومون بطقوس دينية ذات روعة ، يؤدونها فى الأيك أكثر مما يؤدونها فى الهياكل ، ويسترضون الآلهة بتقديم الضحايا البشرية

يأخذونها من المحكوم عليهم بالإعدام لجرائم ارتكبوها ؛ وقد تبدو هذه العادة همجية لمن لم يروا بأعينهم فى هـذه الأيام طريقة الإعدام بالكهرباء ؛ وكان الكهنة هم الطائفة الوحيدة المتعلمة — ولعلها كانت الطائفة الوحيدة غير الأمية — فى هذا المجتمع الغالى ؛ وكانوا يؤلفون التراتيم الدينية والقصائد ، ويكتبون السجلات التاريخية ، ويدرسون « النجوم وحركاتها ، وحجم الكون والأرض ، ونظام الطبيعة »(٣١) ، وقد وضعوا لأنفسهم تقويماً عملياً ؛ وكانوا قضاة لهم نفوذ كبير فى بلاط ملوك القبائل . وكانت غالة قبل عهد الرومان ، كما كانت فى العصور الوسطى ، تسير على النظام الإقطاعى المكتسى بثياب الحكم الدينى . وبلغت غالة الكلتية ذروة مجدها تحت حكم هؤلاء الملوك والكهنة فى القرن الرابع قبل الميلاد ، وازداد عدد السكان لوفرة الإنتاج الناشئ عن أساليب لاتين La Téne الفنية ، فأدى ذلك إلى سلسلة من الحروب للاستيلاء على الأرض ، ولم يحل عام ٤٠٠ ق . م حتى كان الكلت الذين يمتلكون معظم أوربا الوسطى وغالة ، قد استولوا على بريطانيا ، وأسپانيا ، وشمالى إيطاليا . وفى عام ٣٩٠ اندفعوا جنوباً نحو رومة ، وفى عام ٢٧٨ نهبوا دلفى واستولوا على فريجيا ؛ وبعد قرن من ذلك الوقت أخذت قوتهم فى الاضمحلال ؛ وكان بعض السبب فى هذا لين طباعهم الناشئ من ثروتهم ومن تأثرهم بالأساليب اليونانية ، وبعضه الآخر قوة أمراء الإقطاع السياسية . فكما أن الملوك قد قضوا فى العصور الوسطى على قوة الأمراء وأنشئوا بعد القضاء عليها دولة موحدة ، كذلك قضى أمراء الإقطاع فى القرن السابق لظهور قيصر على سلطة الملوك ، وتركوا غالة مقطعة الأوصال أكثر من ذى قبل . وأخذ الكلت يُرَدُّون إلى الوراء فى كل مكان عدا أيرلندة ، فأخضعهم القرطاجنيون فى أسبانيا ، وأخرجهم الرومان من إيطاليا ، وفتح الرومان فى عام ١٢٥ ق . م جنوبى غالة لحرصهم على تأمين طريقهم إلى أسپانيا ، وجعلوا تلك البلاد ولاية رومانية . وفى عام ٥٨ ق . م استغاث زعماء الكلت بقيصر

ليساعدهم على صد غارة ألمانية ، فأجابهم قيصر إلى ما طلبوا وحدد هو ثمن هذه المعونة .

وأعاد قيصر وأغسطس تنظيم غالة فقسماها أربع ولايات : غالة النربونية الجنوب ، وهى المعروفة للرومان باسم پروڤنسيا Provincia ولنا باسم پروڤانس Provence ؛ وقد اصطبغت هذه الولاية إلى حد كبير بالصبغة اليونانية بسبب استيطان اليونان لشاطئ البحر الأبيض المتوسط ؛ وأكوتانيا فى الجنوب الغربى ، ومعظم سكانها من الأيبيريين ، وغالة اللدچونيـــة Ludgonensis فى الوسط ، وكانت الكثرة الغالبة من أهلها من الكلت ، وبلجيكا فى الجنوب الشرقى وكثرة أهلها ألمان . وقد أقرت رومة هذه الأقسام العنصرية وزادتها حدة لتتقى بذلك ثورتها الجامعة ، فأبقت المقاطعات التى تسكنها القبائل المختلفة على حالها واتخذتها أقساماً إدارية . وكان الملاك هم الذين يختارون الحكام ، وقد ضمنت رومة ولاء هؤلاء الملاك بما كانت تقدمه لهم من عون ضد الطبقات الدنيا ، ومنحت حق المواطنية الرومانية مكافأة منها للغاليين الموالين لها الذين يؤدون لها خدمات قيمة . وكانت جمعية إقليمية تضم ممثلين يختارون من كل مقاطعة تجتمع كل عام فى مدينة ليون ؛ وقد قصرت وظيفتها فى أول الأمر على القيام بطقوس عبادة أغسطس ، ولكنها ما لبثت أن انتقلت من هذا إلى التقدم بملتمسات إلى الحكام الرومان ، ثم أصبحت هذه الملتمسات توصيات ثم مطالب . وانتزعت شئون القضاء من أيدى الكهنة ، وبُدِّد شملهم ، واتبع القانون الرومانى فى فرنسا ، وظلت غالة ما يقرب من قرن خاضعة مستسلمة للنير الجديد .

وحدث فى عام ٦٨ م وفى عام ٧١ م أن اندلع لهيب الثورة زمناً قصيراً بقيادة ڤندكس Vindex وسڤيلس Civilis ، ولكن الأهلين لم يقدموا إلا عوناً قليلا لهاتين الحركتين ، وفضلوا الاستمتاع بالرخاء ، والأمن والسلام على حب الحرية ؛

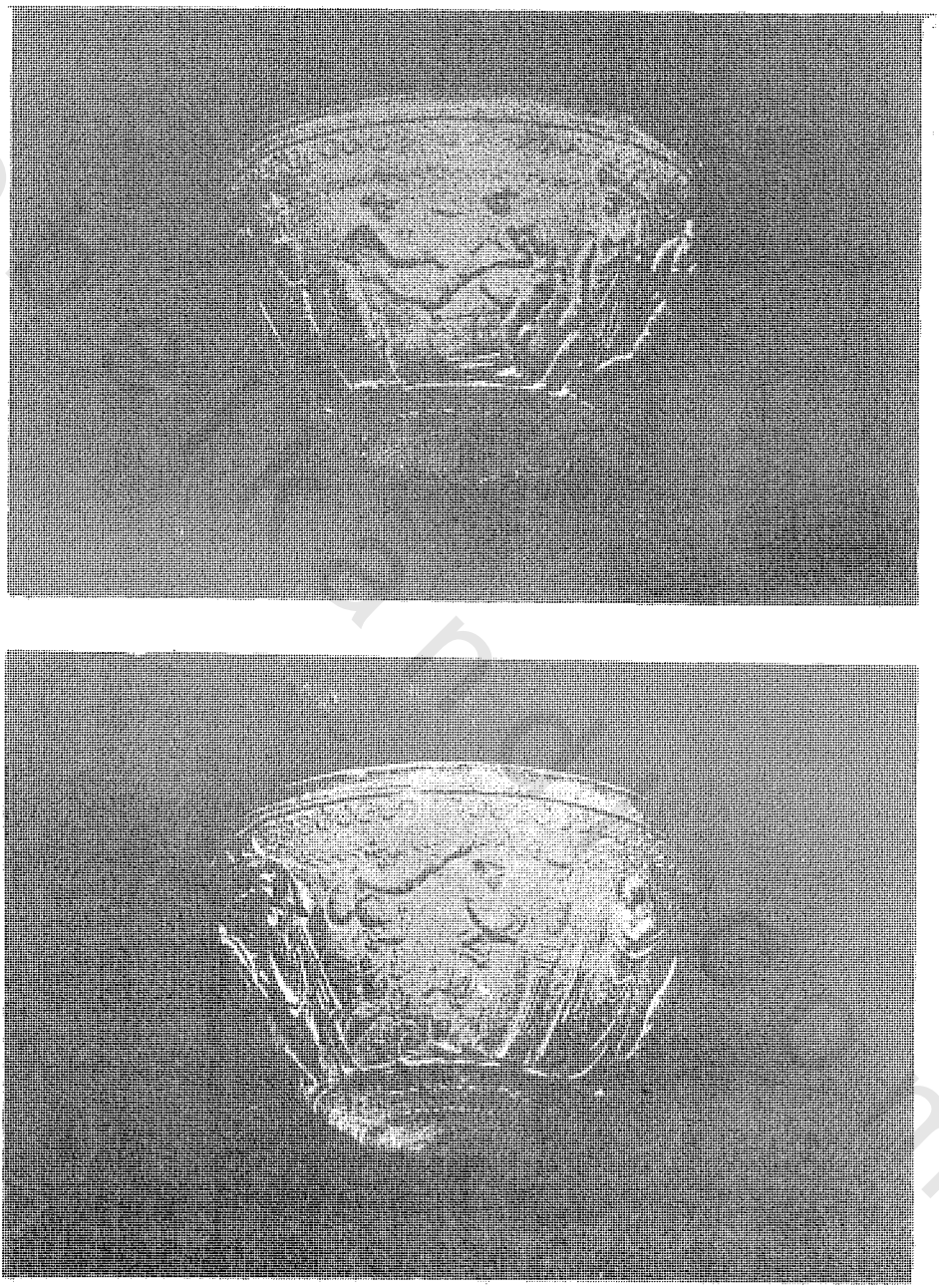

(شكل — ٤) مزهرية من أرتين من مجموعة لوب بجامعة هارفرد

وأصبحت غالة فى ظل السلم الرومانية من أغنى أقسام الإمبراطورية ، وكانت رومة نفسها تعجب من ثراء الأشراف الغاليين الذين انضموا إلى مجلس الشيوخ فى عهد كلوديوس ، وأخذ فلورس Florus بعد مائة عام من ذلك الوقت بذكر الفرق بين ثراء غالة المزدهرة وضعف إيطاليا المضمحلة(٣٣). فقد قطعت الغابات لتفسح الأرض للزراعة ، وجففت المستنقعات ، وارتقت أساليب الزراعة حتى لقد استخدمت حصادة آلية(٣٤) ، وانتشرت الكروم وأشجار الزيتون فى كل مقاطعة ، وكان پلنى وكولملا Columella فى القرن الأول الميلادى يمتدحان خمور برغندية وبردو . وكانت فى البلاد ضياع واسعة يفلحها العبيد وأقنان الأرض ويمتلكها أسلاف أمراء الإقطاع فى العصور الوسطى ؛ ولكن كان فيها أيضاً كثيرون من صغار الملاك ، وكانت الثروة فى غالة القديمة ، كما هى فى فرنسا الحديثة ، موزعة توزيعاً أقرب إلى المساواة منه فى أية دولة متمدينة أخرى . وتقدمت الصناعة بوجه خاص تقدما سريعاً ، فلم يحل عام ٢٠٠ م حتى أخذ صناع الفخار والحديد ينتزعون أسواق ألمانيا وأسواق الغرب من إيطاليا ، والنساجون الغاليون يقومون بالجزء الأكبر من صناعة النسيج فى الإمبراطورية ، وحتى كانت مصانع ليون تخرج الزجاج التجارى وأدوات زجاجية ذات روعة فنية ممتازة(٣٥). وكانت البراعة الفنية فى الصناعة يتوارثها الأبناء عن الآباء ، حتى أضحت جزءاً ثميناً من التراث الرومانى ، وكانت الطرق التى أصلحها الرومان أو أنشئوها والتى يبلغ طولها ٠٠٠ ر١٣ ميل غاصة بأدوات النقل وبالتجارة .

وأثرت بلدان كلتيكا القديمة بفضل هذه الحياة الاقتصادية المتسعة ، فأصبحت مدائن كبرى فى غالة الرومانية ، فكانت بردجالا Burdegala (هى بردو الحالية) عاصمة أكوتانيا من أكثر ثغور المحيط الأطلنطى حركة وتجارة ، وكانت ليمونم Limonum (ليموج) وأفريكم Avaricum (يورج) وأغسطنمتم Augustonemetum (كليرمون — فران Clermont-Ferraand) مدائن غنية

حتى قد استطاعت هذه المدينة الأخيرة أن تقدم لزنودوتس Zenodotus أربعمائة ألف سسترس ليقيم بها تمثالا ضخما لعطارد(٣٦) . وفى غاليا النربونية بلغت المدن من الكثرة درجة جعلت پلنى يصفها بأنها « أشبه بإيطاليا منها بولاية من ولاياتها » . وكان فى الجهة الغربية مدينة طولوزا Tolosa (طولوز الحالية) التى اشتهرت بمدارسها ، وكانت ناربو Narbo نربونة (Narbonne) عاصمة الولاية فى القرن الأول الميلادى أعظم مدائن غالة ، وأهم الثغور التى تصدر منها غلاتها إلى إيطاليا وأسپانيا ، وقد وصفها سيدونيوس أپلينارس Sidonius Apollinaris بقوله إن «فيها أسوارا ، وطرقاً للتنزه ، وحانات ، وعقودا وأروقة ذات عمد ، وسوقا عامة ، وملهى ، وهياكل وحمامات ، وأسواقا للبيع والشراء ، ومراعى ، وبحيرات ، وقنطرة ، وبحراً »(٣٨) . وكان إلى شرق هذه المدينة على طريق دوميتيا العظيم الذى يصل أسپانيا بإيطاليا بلدة نموسس Nemousus (نيمز Nimes) ؛ وقد شاد أغسطس والمدينة بيتها المربع Maison Carrée الجميل تخليدا لذكرى حفيديه لوسيوس وكيوس قيصر ؛ ومما يدعو إلى الأسف أن أعمدته الداخلية داخلة فى جدران المحراب ، ولكن أعمدته الكورنثية المنفصلة لا تقل جمالا عن أية عمد فى رومة . ولا تزال الاحتفالات تقام من آن إلى آن فى مدرجها الذى كان يتسع لعشرين ألفا من النظارة . وتحولت القناة الرومانية التى كانت تنقل الماء العذب إلى رومة على مر الزمن إلى قنطرة نهر جار Gard ولاتزال العقود السفلى لهذه القنطرة قائمة إلى اليوم فى صورة آثار ضخمة محطمة فى الريف العابس القريب من المدينة تظهر بجلاء ما بينها وبين العقود الصغرى التى فوقها من اختلاف ، وتشهد هذه وتلك بعظمة فنون رومة الهندسية .

وأنشأ قيصر شرق هذه المدينة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط مدينة أرلات Arelate (آرل الحديثة Arles) ظنا منه أنها ستحل محل مساليا Massalia المشاكسة ، فتكون مركزاً لبناء السفن وثغراً تجاريا هاما . وكانت

مساليا (مرسيليا) مدينة قديمة حين ولد قيصر ، وبقيت يونانية بلغتها وثقافتها إلى آخر أيامه . وكانت فنون الزراعة ، وغرس الأشجار ، وزراعة الكروم ، والثقافة اليونانية قد دخلت بلاد غالة من مرفأ هذه الفُرضة البحرية . وفيها بنوع خاص كانت أوربا الغربية تستبدل بغلاتها حاصلات بلاد اليونان والرومان ، وكانت إلى هذا من أعظم مراكز الجامعات فى الإمبراطورية ، وكان أعظم ما اشتهرت به مدرسة الحقوق : وقد اضمحل شأنها بعد قيصر ولكنها ظلت كما كانت مدينة حرة مستقلة فى شئونها عن حاكم الولاية . وكان يليها من جهة الشرق فورم لولياى Forum Lulii (فريجو Frejus) ، وأنتيوليس Antipolis (أنتيب Antibes) ونيسيا Nicaea (نيس) ، ويتألف منها كلها ولاية الألب البحرية الصغيرة . وإذا انتقل المسافر فى نهر الرون من أرلات وصل إلى أفنيو Avenio (أفنيون الحديثة Avignon) وأروسيو Arausio (أورانج Orange) وقد بقى فى هذه المدينة الأخيرة قوس عظيم من أيام أغسطس ؛ وفيها أيضاً ملهى رومانى ضخم لا تزال تمثل فيه مسرحيات قديمة .

وكانت أكبر ولايات غالة هى غالة اللجدونية ، وسميت كذلك نسبة إلى عاصمتها لجدونم Lugdunum (ليون الحالية) . وكانت هذه العاصمة تقع عند ملتقى الرون والساؤون وملتقى عدة طرق برية كبرى أنشأها أجريا ، ولذلك أضحت المركز التجارى لإقليم غنى وعاصمة لغالة كلها . وقد استطاعت بفضل ما قام فيها من صناعات الحديد والزجاج والخزف أن تقبل فى القرن الأول الميلادى عدداً من السكان يبلغ حوالى مائتى ألف(٤٠) . وكان إلى شمالها بلدة كبيلونم Cabillonum (شالون — على — الساؤون Chalon-sur-Saône) وقيصردونم Caesarodunum (تور Tours الحالية) وأغسطدونم Augustodunum (أوتون Outun الحالية) وسنابوم Cenabum (أورليان الحالية Orleans) لوتيريا Luteria (پاريس الحالية) . وكتب الإمبراطور يوليان يصف هذه

المدينة الأخيرة فقال : « لقد قضيت الشتاء (٣٥٧ — ٣٥٨) فى لوتيريا مدينتنا المحبوبة ، لأن هذا هو الاسم الذى يطلقه الغاليون عن مدينة الباريزيين الصغيرة ، وهى جزيرة فى النهر : . . يعصر فيها الخمر الطيب »[٤١] .

وكانت ولاية بلجيكا التى تشمل أجزاء من فرنسا وسويسرا الحاليتين بلاداً لا يكاد أهلها يشتغلون بغير الزراعة ؛ وكان معظم ما فيها من صناعات قليلة متصلا بالقصور الصغيرة ذات الحدائق التى تدل بقاياها الكثيرة على أن أصحابها كانوا من الأشراف الذين يعيشون معيشة الدعة والترف . وفى هذه الولاية أنشأ أغسطس المدائن المعروفة الآن بأسماء سواسون Soissons ، وسان كنتن St Quentin ، وسنلى Senlis ، وبوفيه ، وتريف Treves . وازدهرت آخر هذه المدن ، وكانت تسمى أغسطا ترفرورم Augusta Trevirorum لأنها كانت مركز قيادة الجيش المدافع عن الرين ؛ وأصبحت فى أيام دقلديانوس عاصمة غالة بدل مدينة ليون ، وصارت فى القرن الخامس أكبر مدينة فى شمال جبال الألب ، ولا تزال حتى الآن غنية بآثارها الرومانية القديمة — فلا تزال البورتا نجرا PortaNigra محتفظة بأسوارها الرومانية ، ولا تزال فيها حمامات سانت بربارا ، وفى إيجل Igel القريبة منها مقبرة أسرة سكنديني ، وفى نوماجين Neumagen المجاورة لها النقوش الفجة التى كانت على كتل الحصن الحجرية .

وبدلت الحياة حول هذه المدن ظاهرها تبدلا بطيئاً وجددت عناصرها فى عناد شديد فاحتفظ الغاليون بخلقهم ، وسراويلهم القصيرة ، وظلوا ثلاثة قرون محتفظين بلغتهم ولكن اللغة اللاتينية غلبتهم على أمرهم فى القرن السادس . وكان أكبر السبب فى هذه الغلبة استخدامها فى الكنيسة الرومانية ، ولكنها كانت وقتئذ قد شذبت ورخمت حتى صارت فرنسية . ونالت رومة أعظم فوز لها فى غالة بنقل الحضارة الرومانية إليها . ويرى بعض كبار المؤرخين الفرنسيين أمثال چوليان وفنك برنتانو

Funck-Brentano[٤٣] أن فرنسا كانت تكون خيراً مما هى لو لم تفتحها رومة ، ولكن مؤرخا آخر أعظم من هذين المؤرخين يعتقد أنه لو لم تفتح رومة غالة لفتحتها ألمانيا حتما ، وأنه لو لم ينتصر قيصر فى تلك البلاد. كما يقول ممسن Mommsen :

« لحدثت هجرة الشعوب قبل حدوثها بأربعمائة عام ، وفى وقت لم تكن الحضارة الإيطالية قد تأقلمت فى غالة أو على ضفاف الدانوب ، أو فى أفريقية وأسپانيا . وبفضل ما كان للقائد والسياسى الرومانى العظيم من بصيرة نافذة أدرك بها أن القبائل الألمانية هى العدو المنافس للعالم الرومانى — اليونانى ، وبفضل قوته وشدة بأسه التى استطاع بها أن يضع للدولة نظامها الجديد نظام الدفاع الهجومى بجميع تفاصيله ودقائقه ، ويعلم الناس أن يحصنوا حدود الإمبراطورية بالأنهار والأسوار الاصطناعية . . . بفضل هذا كله كسب للثقافة اليونانية — الرومانية الفترة التى لم يكن منها بد لتمدين الغرب »[٤٤] .

لقد كان نهر الرين هو الحد الفاصل بين الحضارة الرومانية — اليونانية وبين الحضارة البدائية ؛ فأما غالة فلم يكن فى وسعها أن تدافع عن هذا الحد ، وأما رومة فقد دافعت عنه ، وكان دفاعها هذا هو الذى حدد مجرى تاريخ أوربا إلى يومنا هذا .

الفصل الخامس

بريطانيا

عبر البحر من غالة حوالى عام ١٢٠٠ ق . م . فرع من قبائل الكلت واستقر فى إنجلترا . وقد وجدوا فى تلك البلاد خليطا من شعب أسود الشعر لعله أيبيرى ، وشعب أشقر الشعر اسكندناوى . وغلب الكلت هؤلاء الأهلين على أمرهم ، وتزوجوا منهم ، وانتشروا فى إنجلترا وويلز . وحوالى عام ١٠٠ ق . م (ونغفل تلك القرون الأحد عشر لأن أنانيتنا تحملنا على اختصار هذه الأحقاب المليئة بالحوادث وتمحو الأجيال الجليلة الشأن من الذاكرة المزدحمة لكى تقربنا من عصرنا الحديث) أقبل فرع آخر من الكلت من داخل القارة وطرد بنى عمومته من جنوبى بريطانيا وشرقيها . ولما جاءها قيصر وجد سكان الجزيرة يتألفون من عدة قبائل مستقلة لكل منها ملك يريد أن يوسع مملكته الصغيرة ، وأطلق على السكان كلهم اسم البريطانى Britanni نسبة إلى قبيلة غالية تسمى بهذا الاسم كانت تسكن جنوبى القناة الإنجليزية مباشرة ، ظنا منه أن هذه القبيلة نفسها تسكن كلا الشاطئين .

وكانت بريطانيا الكلتية شبيهة كل الشبه بغالة الكلتية فى عاداتها ولغتها ودينها ، ولكنها كانت متأخرة عنها فى حضارتها . وقد انتقلت من العصر البرنزى إلى العصر الحديدى قبل مولد المسيح بنحو ستة قرون أن بعد انتقال غالة إلى هذا العصر الأخير بثلاثة قرون . ولما عبر پيثياس Pytheas ، المرتاد الماسليوتى Massiliot المحيط الأطلنطى إلى إنجلترا حوالى عام ٣٥٠ ق . م وجد بلدة كنتياى Cantii فى مقاطعة كنت Kent غنية بزراعتها وتجارتها ، فقد كانت تربتها حصبة بفضل الأمطار

الغزيرة ، وكانت أرضها تحتوى على خامات غنية بالنحاس ، والحديد ، والقصدير ، والرصاص . وكانت صناعاتها المنزلية قبيل عهد قيصر تكفى لإيجاد تجارة ناشطة بين القبائل التى تسكنها ومع القبائل الأوربية ، وضربت فيها نقود من البرنز والذهب(٤٥) . وكانت غارات قيصر فى واقع الأمر غارات استكشافية ، عاد منها ليؤكد إلى رومة أن القبائل التى تسكن تلك البلاد عاجزة عن المقاومة المتحدة ، وأن غلاتها تكفى جيشاً غازياً يأتيها فى الوقت المناسب . وبعد مائة عام من ذلك الوقت (٤٣ م) عبر كلوديوس القناة ومعه أربعون ألفاً من الجنود كان نظامهم وتسليحهم ، ومهارتهم فوق طاقة السكان الأصليين ، فأخضعوا بريطانيا لرومة وأصبحت من ذلك الوقت ولاية تابعة لها . وفى عام ٦١ قادت ملكة لإحدى القبائل البريطانية تدعى بودكا Boudicca أو بوديسيا Boadicea ثورة شديدة ، وادعت أن ضباطاً رومانيين قد اعتدوا على عفاف ابنتيها ، ونهبوا مملكتها ، وباعوا كثيراً من رجالها الأحرار فى سوق الرقيق . وبينا كان الحاكم الرومانى پولينس مشغولا فى الاستيلاء على جزيرة مان Man هزم جيش بودكا الفيلق الوحيد الذى وقف فى وجهه ، وزحف على لندنيوم Londinium ، وكانت فى ذلك الوقت — على حد قول تاستس — « أهم مسكن للتجار ، كما كانت سوقاً كبرى للتجارة »(٤٦) . وقتل كل رومانى فى هذه المدينة أو فى فريولامنيوم Verulaminium (سانت أولبنز St. Aibans) ، وذُبح سبعون ألف رومانى هم وحلفاؤهم قبل أن يلتقى پولينس وفيالقه بالثوار . وحاربت بودكا وابنتاها فى عربة حربية بشجاعة نادرة فى أثناء هزيمتها ، ثم تجرعت السم ؛ وضربت بحد السيف رؤوس ثمانين ألفاً من البريطانيين .

ويحدثنا تاستس عن أجركولا زوج ابنته وحاكم بريطانيا (٧٨ — ٥٤ م) فيروى كيف نشر الحضارة بين « شعب فظ مشتت ذى نزعة حربية » بإنشاء المدارس ، وإذاعة استعمال اللغة اللاتينية ، وتشجيع المدن والأغنياء على تشييد

المعابد ، والباسلقات ، والحمامات العامة ، ثم يقول ذلك المؤرخ السليط : « واستحوذت مباهج الرذيلة شيئاً فشيئاً على قلوب البريطانيين ؛ فصارت الحمامات ، والحجرات الجميلة ، والمآدب الفخمة ، محببة إليهم ، وأخذ البريطانيون الغافاون يسمون الآداب الجديدة باسم فنون الإنسانية المهذبة ؛ وإن لم تكن فى حقيقة أمرها إلا ستاراً جميلا للاسترقاق » . واستطاع أجركولا بحملات حربية سريعة أن يحمل هذه الفنون والحكم الرومانى ، إلى ضفاف نهرى الكليـــد Clyde والفورث Forth وأن يهزم جيشاً من الأسكتلنديين مؤلفاً من ثلاثين ألفاً ، ولولم يدعه دومتيان ليواصل الزحف . وشاد هدريان سوراً (١٢٢ — ١٢٧) طوله سبعون ميلا فى عرض الجزيرة يمتد من خليج ســـلواى Solway Firth إلى مصب التين Tyne ليصد الاسكتلنديين الذين كانوا يرتابون فى نواياه ؛ وبعد عشرين عاماً من ذلك الوقت أقام لوليوس Lollius فى شمال هـــذا السور سوراً آخر طوله ثلاثة وثلاثون ميلا يعرف بسور أنطونينس ويمتد بين مصبى الكليد والفورث . وبفضل هذين الحصنين استطاعت رومة أن تأمن على بريطانيا أكثر من قرنين من الزمان .

وكان حكم رومة يزداد ليناً ورحمة كلما زاد استقراراً ، فأصبحت المدن تشرف عليها مجالس شيوخ وجمعيات وطنية وحكام من أهلها ، وترك الريف كما ترك فى غالة إلى رؤساء القبائل الخاضعين لإشراف الرومان . ولم تكن الحضارة فى بريطانيا حضارة مدن كما كانت فى إيطاليا ، كما أنها لم تكن غنية غناء حضارة غالة ، ولكن المدن البريطانية أخذت وقتئذ أشكالا جديدة بفضل استنهاض رومة وحمايتها لها . وكانت أربع من هذه المدن مستعمرات يتمتع أهلها بحق المواطنية الرومانية وهى : كمولودونم Camulodunum (كلشستر Colchester) التى كانت أولى عواصم بريطانيا الرومانية ومقر مجلس الولاية ؛ ولندم Lindum التى يدل اسمها لنكولن الحديث Lincoln على ما كان لها من امتياز قديم ؛ وإبراكم Eboracum (يورك) وكانت وقتئذ مركزاً حربياً هاماً ؛ وجليقم Glevum ، التى

امتزج فى اسمها الحديث جلوسستر Gloucester لفظا جليقم وشستر وثانى اللفظين هو اللفظ الإنجليزى السكسونى المقابل لكلمة مدينة(*) ؛ ويلوح أن تشستر ، وونشستر ، ودورشستر ، وشيشستر ، وليسستر (لستر) وسلشستر ، ومنشستر قد بدأت كلها فى القرنين الأول والثانى من حكم الرومان . وكانت فى أول الأمر بلدانا صغيرة يسكن كل منها حوالى ستة آلاف نفس ، ولكنها كانت تستمتع بشوارع مرصوفة ذات مجار ، وبأسواق عامة ، وباسلقات ، وهياكل ، وبيوت أسسها من الحجارة وأسقفها مغطاة بالقراميد ، وكان فى ڤركونيوم Virconium (ركستر الحالية Wroxeter) باسلقا تتسع لستة آلاف شخص ، وحمامات تتسع لاستحمام مئات من الأشخاص فى وقت واحد . وكان فى أكوا سالس Aquae Salis (المياه الملحة) ، التى تعرف باسم باث Bath عيون حارة أصبحت بفضلها ملاذا طبيا فى الزمن القديم كما يدل على ذلك ما بقى من أثار حماماتها الحارة إلى اليوم . وعلا شأن لندنيوم من الناحيتين الاقتصادية والحربية لحسن موقعها على نهر التاميز ولأهمية الطرق المتفرعة منها ، وزاد سكانها حتى بلغوا ستين ألفا ، وسرعان الطرق المتفرعة منها ، وزاد سكانها حتى بلغوا ستين ألفا ، وسرعان ما أضحت عاصمة بريطانيا بدل كولودونم(٤٩) .

وكانت البيوت فى لندن الرومانية من الآجر والمصيص أما فى البلدان الصغيرة فكانت من الخشب ، وكان الجو هو الذى يحدد شكلها ، فكان لها سقف هرمى يقيها المطر والثلج ، ونوافذ كثيرة لينفذ منها ما عسى أن يكون من أشعة الشمس ، « لأن الشمس » كما يقول استرابون « لم تكن ترى أكثر من ثلاث ساعات أو أربع حتى فى اليوم الصحو »(٥٠) . أما داخلها فكان على الطراز الرومانى :— أرضه من الفسيفساء ، وبه حمامات كبيرة ، وجدران قائمة عمودية وتدفئة مركزية

(*) هفرفيلد Haverfield (٤٨) ، لكن أكثر من هذا قبولا أن اللفظ مشتق من كسترم Castrum اللاتينية ومعناها حصن ؛ أوكسترا Castra بمعنى معسكر . وقد خططت معظم المدن الرومانية — البريطانية على طراز رقعة الشطرنج كما كانت تخطط المعسكرات الرومانية .

(تزيد على ما كان منها فى البيوت الإيطالية) بأنابيب تحمل الهواء الساخن فى أرض البيت وجدرانه . وكان الفحم يستخرج من العروق القريبة من سطح الأرض ، ويستخدم فى تدفئة البيوت ، وفى الأغراض الصناعية كصهر الرصاص . ويبدو أن مناجم بريطانيا القديمة كانت ملكا للدولة ، ولكنها كانت تؤجرها للأفراد يستغلونها[٥١] . وكان فى باث مصنع (فبريكا Fabrica لصنع الأسلحة الحديدية[٥٢] ، وأكبر الظن أن صناعات الخزف ، والآجر والقرميد قد ارتقت حتى كانت تصنع فى المصانع ، ولكن معظم الصناعات كانت فى البيوت ، والحوانيت الصغيرة ، والدورذات الحدائق . وكان فى الجزيرة خمسة آلاف ميل من الطرق الرومانية ، وعدد لا يحصى من الطرق المائية تنقل عليها التجارة الداخلية النشيطة ، هذا فضلا عن تجارتها الخارجية المتواضعة التى كانت عكس تجارة بريطانيا فى هذه الأيام لأنها كانت تصدر المواد الأولية اللازمة للصناعة .

ترى إلى أى عمق نفذت الحضارة الرومانية فى حياة بريطانيا وروحها فى الأربعة القرون التى سيطرت فيها رومة على الجزيرة ؟ لقد صارت اللغة اللاتينية لغه السياسة ، والقانون ، والأدب ، والأقلية المتعلمة فى البلاد ، لكن اللسان الكلتى بقى سائداً فى الريف وبين عمال المدن ، ولا يزال يقاوم حتى الآن فى ويلز وفى جزيرة مان . ونشرت المدارس الرومانية القراءة والكتابة فى بريطانيا ، وعينت الصورة الرومانية لحروف الهجاء الإنجليزية ، وغمر اللغة الإنجليزية سيل من الكلمات اللاتينية وبنيت هياكل للآلهة الرومانية ، ولكن الرجل العادى ظل يمجد الأرباب والأعياد الكلتية ، وحتى المدن الكبرى نفسها لم تمد رومة فيها جذورا باقية ، وكل ما فى الأمر أن الأهلين خضعوا كارهين لحكم استمتعوا فى ظله بسلم مثمرة ورخاء لم تستمتع الجزيرة بمثله إلا أيام الانقلاب الصناعى .

الفصل السادس

البرابرة

كان ما قرره أغسطس وتيبيريوس من عدم السماح بفتح ألمانيا من بين الحادثات الهامة فى تاريخ أوربا . فلو أن رومة فتحت ألمانيا وصبغتها كما صبغت غالة بالصبغة الرومانية ، لكان لأوربا الواقعة فى غرب الروسيا كلها تقريباً نظام واحد ، ولربما قامت أوربا الوسطى فى هذه الحالة حاجزاً فى وجه تلك الجماعات الكبرى التى كان ضغطها على الألمان سبب غزوهم إيطاليا .

ونحن نسميهم الألمان ، وإن كانوا هم أنفسهم لم ينطقوا بهذا الإسم ، وليس ثمة من يعرف مصدره(*) ، ولقد كانوا فى الأيام القديمة خليطاً من قبائل مستقلة ضاربة فى ذلك الجزء من أوربا المحصور بين نهرى الرين والڤستيولا Vistula ؛ وبين الدانوب وبحر الشمال والبحر البلطى . وتبدلت أحوالهم شيئاً فشيئاً فى القرنين الواقعين بين حكم أغسطس وحكم أورليوس فانتقلوا من حياة الهجرة للصيد والرعى إلى حياة الزراعة والقرى ، ولكنهم كانوا لايزالون على درجة من البداوة جعلتهم يستنفدون بسرعة خصب الأرض التى يفلحونها ، ثم يرحلون ليفتحوا بحد السيف أرضاً جديدة . ومن أجل هذا كانت الحرب طعام الألمانى وشرابه إذا جاز لنا أن نصدق قول تاستس :

« ليس شعار الألمانى هو أن يزرع الأرض وينتظر حتى يجنى المحصول فى موسمه ، بل إنك ليسهل عليك أن تقنعه بأن يهاجم عدوه ، ويتلقى فى جسمه الجراح الشريفة فى ميدان القتال . ويرى الألمانى أن كسبك بعرق الجبين ما تستطيع

(*) كان الرومان يستخدمون كلمة جرمانس Germanus الوصفية (المشتقة من Germen بمعنى النسل) ويعنون بها « أبناء نفس الأبوين » . ولعلهم حين أطلقوها على الألمان كانوا يفكرون فى نظام القبائل التيوتونية القائم على صلة القبائل .

أن تشتريه بدمك هو شعار العاجزين الخاملين وأنه لا يليق قط بالجندى »[٥٣]

ولقد تحدث المؤرخ الرومانى عن صفات الألمان الحربية وعن حماسة النساء وهن يحرضن الرجال على القتال ، ويحاربن إلى جنبهم فى كثير من الأحيان . وكان وهو يصفهم يتحسر على تدهور شعبه بفعل الترف والسلم ، ويغالى فى هذا الوصف مغالاة الواعظ والمعلم الأخلاقى . ولقد كان الفرار من العدو يسربل من يرتكبه بعار لا يمحى مدى الحياة ، ويؤدى فى كثير من الأحيان إلى الانتحار . وقد وصف استرابون الألمان بأنهم « أشد بأساً وأطول قامة من الغاليين »[٦٤] . وكأن سنكا قد قرأ تاستس فاستنتج من هذا نتائج منذرة بأسوأ النذر فقال : « إن الترف والثراء لا يزيدان هذه الأجسام القوية العنيفة ، وهذه التقوى التى لا تعنى قط باللذة ، إلا قليلا من التنظيم والحذق فى الحركات العسكرية — وحسبى هذا . ولن تستطيعوا (أيها الرومان) أن تقفوا فى وجههم إلا إذا عدتم إلى فضائل آبائكم »[٥٥] .

ويروى تاستس أن أولئك الأقوام كانوا فى أيام السلم كسالى بلداء ، يقضى الرجال أوقاتهم (ولعل ذلك بعد الصيد أو موسم الحصاد) فى ملء بطونهم باللحم وشرب أنهار من الجعة ، بينما تقوم النساء والأطفال بالأعمال المنزلية[٥٦] . وكان الألمانى يشترى زوجته من أبيها بهدية من الماشية أو السلاح ، وكان له عليها وعلى أبنائهما حق الحياة أو الموت بشرط أن توافق على ذلك جمعية القبيلة . لكن النساء رغم هذا كانت لهن عندهم مكانة عالية ؛ وكثيراً ما كان يطلب إليهن أن يفصلن فيما يشجر بين رجال القبيلة من منازعات ، وكان من حقهن أن يطلقن أزواجهن ، كما كان من حق هؤلاء الأزواج أن يطلقوهن . وكان لبعض زعماء القبائل عدة أزواج ، ولكن الأسرة الألمانية العادية لم يكن فيها إلا زوجة واحدة ، ويؤكد لنا المؤرخون أنها كانت تراعى مستوى عالياً من الأخلاق الزوجية ، « فالزنى قلما كان يسمع به » عندهم ؛ وإذا ارتكبته المرأة عوقبت بقص شعرها والحكم عليها بأن تسير عارية فى الشوارع ، وأن تضرب بالسياط ، وهى تحاول

الفرار . وكان يسمح للزوجة أن تجهض نفسها إذا شاءت[٥٨] ، ولكنها كانت فى العادة امرأة ولودا . وكان يندر وجود رجال بلا أبناء ولهذا لم تكن عندهم وصايا ، وكان المفروض أن أملاك الأسرة يرثها الولد عن أبيه جيلا بعد جيل[٥٩] .

وكان السكان يتألفون من أربع طبقات : (١) طبقة المقيدين وبعضهم عبيد وكثرتهم من أقنان الأرض المرتبطين بها ، والمفروض عليهم أن يؤدوا التزاماتهم للمالك من غلتها ؛ (٢) والمحررين — وهم المستأجرون الذين لا يتمتعون بحقوق سياسة (٣) والأحرار — وهم الملاك والمحاربون ؛ (٤) والأشراف — وهم ملاك الأراضى الذين تتصل أنسابهم بالآلهة ، ولكنهم يقيمون سلطتهم على أساس أملاكهم الموروثة وحرسهم الخاص (Comites أى الرفاق ، ومنها اشتقت كلمة كونت) . وكانت الجمعية القبلية تتألف من الأشراف ، ورجال الحرس ، والأحرار ، يأتون إليها مسلحين ، ويختارون الزعيم أو الملك ، ويوافقون على ما يعرض عليهم من اقتراحات بضرب الحراب بعضها ببعض ، أو يرفضونها بزمجرة كثرة الحاضرين . وكان بعض أفراد الطبقتين الثانية والثالثة يشتغلون بالصناعات اليدوية والمعدنية التى برع فيها الألمان ؛ أما الطبقة الرابعة فكان منها النبلاء والفرسان ، وهى التى أنشأت نظام الفروسية فى ألمانيا الإقطاعية .

ولم يضف إلا قليل من البناء الثقافى فوق هذا النظام الاجتماعى الساذج . ولم يكد الدين وقتئذ ينتقل من عبادة الطبيعة إلى عبادة الأرباب المجسدة فى صورة الآدميين . ويسمى تاستس آلهتهم : المريخ Mars ، وعطارد Mercury ، وهرقل Herculies — والراجح أن الأسماء الحقيقية لهذه الآلهة هى تيو Tiu (تير Tyr) ووودن Woden (أودن Odin) ، ودونار Donar (تور) ؛ ولا تزال أربعة أيام من كل أسبوع تخلد ذكراها هى وفريا Freya إلاهة الحب ، على غير علم منا ، وكانت لهم إلاهة عذراء (هرثا Hertha) (الأم الأرض) ، التى حملت من أحد أرباب السماء ؛ كما أن كل حاجات الإنسان وكل ما يخطر بباله كانت تؤديه طائفة

مختلفة من الجنيات ، والعفاريت الصغار والكبار ، وجن البحار ، والمردة ، والأقزام . وكانت الضحايا البشرية تقرب إلى وودن ، وربما كانت الحيوانات الألد طعما من الآدميين تقرب إلى غيره من الأرباب ، وكانت الصلوات تقام فى الخلاء فى الغابات والغياض ، لأن الألمان كانوا يرون أن من السخف حصر روح من أرواح الطبيعة فى مسكن تشيده الأيدى البشرية . ولم يكن عندهم طبقة دينية قوية شبيهة بالدرويد Driuds عند الغاليين أو البريطانيين ، ولكنهم كان لديهم كهنة وكاهنات ، يرأسون الاحتفالات الدينية ، ويجلسون للفصل فى القضايا الجنائية ، ويتنبئون بالمستقبل بدراسة مهبل الجياد البيض وحركاتها . وكان عندهم كما كان فى غالة شعراء يتغنون فى شعر فج بأقاصيص قبائلهم وتاريخها . وكان منهم أقلية تعرف القراءة والكتابة ، وكيفت الحروف الهجائية اليونانية فجعلت منها العلامات التى تطورت منها الحروف القوطية وهى الحروف الألمانية الحديثة . وكان الفن عندهم بدائيا ، ولكنهم أخرجوا تحفا جميلة من الذهب .

ولما أن سحبت رومة فيالقها من ألمانيا احتفظت بسيطرتها على نهر الرين من منبعه إلى مصبه ، وقسمت هذا الوادى الفخم ولايتين — ألمانيا العليا وألمانيا السفلى ، وكانت ثانيتهما تشمل هولندة وأرض الرين الممتدة جنوباً إلى كولونى . وكانت هذه المدينة الجميلة المعروفة عند الرومان باسم كولونيا أجريپنس Colonia Agrippinansis قد جعلت ولاية (٥٠ م) تكريما لأم نيرون التى ولدت فيها ؛ ولم يمض عليها أكثر من خمسين عاما حتى كانت أغنى المحلات القائمة على نهر الرين . أما ولاية ألمانيا الشمالية فكانت تمتد على نهر الرين نحو الجنوب مخترقة مجنتياكم Maguntiacum (ماينس Mayence) ، وأكوا أوريليا Aquae Aureliae (بادن — بادن Baden-Baden) وأرجنتراتم Argentoratum (استراسبورج Strasbourg) وأغسطا روركورم Ausgusta Rauricorum (أوغسط Augst) وتنتهى عند فندونسا VIndonissa (ڤندش Windisch) . وكان فى هذه المدن

جميعها تقريبا ما فى غيرها من الهياكل والباسلقات ، والملاهى ، والحمامات ، والتماثيل العامة . وكانت كثير من الفيالق التى ترسلها رومة لحراسة الرين تعيش خارج معسكراتها ، ويتزوج رجالها بفتيات ألمانيات ، ويعيشون مواطنين فى تلك البلاد بعد أن تنتهى مدة خدمتهم العسكرية . والراجح أن بلاد الرين لم تكن فى أيام الرومان أقل سكانا أو غنى منها فى أى وقت قبل القرن التاسع عشر .

ولقد سبق القول إن مهندسى رومة العسكريين قد أنشئوا بين نهرى الرين والدانوب طريقاً محصنا ، وأقاموا على جانبيه قلاعا تبعد كل منها عن الأخرى تسعة أميال ، كما أقاموا عليه سوراً يبلغ طوله ثلثمائة ميل . وأفاد هذا الطريق المحصن رومة مائة عام ، ولكنه لم يفدها شيئاً حين نقصت نسبة المواليد بين الرومان نقصاً كبيراً عما كانت عليه عند الألمان . وكان نهر الدانوب الذى يعده الأقدمون أطول أنهار العالم أضعف من نهر الرين حدا فاصلا بين الدولة الرومانية والقبائل الألمانية . وكان إلى جنوبه الولايات النصف الهمجية ريتيا ، ونوركم ، وپنونيا ، وهى الولايات التى تتكون منها البلاد التى كنا نعرفها فى شبابنا باسم دولتى النمسا والمجر والصرب . وقد أنشأ الرومان فى موضع أجزبرج Augsburg (أى بلدة أغسطس) الحديثة مستعمرة رومانية هى مستعمرة أغسطا فندلكورم Augusta Vindelicorum كانت هى المحطة الرئيسية على الطريق الممتد من إيطاليا فوق ممر برنر Brenner إلى نهر الدانوب . وشادوا على النهر نفسه مدينتين حصينتين عند ڤندوبونا Vindobona وهى مدينة ڤينا الحالية ، وعند أكونكم Aquincum على المرتفعات التى تشرف منها بودا Buda على بست Pest . وقامت مدينة سرميوم Sirmium (متروڤيكا Mitrovica) فى پنونيا الجنوبية الشرقية على نهر الساف Save غرب موقع بلغراد الحديثة ، وصارت هذه المدينة فى أيام دقلديانوس إحدى عواصم الإمبراطورية الأربع . وقامت بفضل النشاط التجارى

لليونان ، والرومان ، والأهالى الوطنيين فى مقاطعة دلماشيا الواقعة جنوبى پنونيا ثغور البحر الأدرياوى وهى سالونا Salona (اسپلاتو Spalato الحديثة) وأپولونيا Appolonia (بالقرب من ڤالونا) ، وديرهكيوم Dyrrhachium (دورزو Durazzo الحديثة) . وكانت رومة الإمبراطورية تجند من هذه الولايات الواقعة جنوب الدانوب أقوى جنودها أجساما وأصلبهم عودا ، كما كانت تستمد منها فى القرن الثالث الأباطرة الحربيين الذين صدوا سيل البرابرة حوالى مائتى عام . وكان فى شرق پنونيا ولاية داشيا (رومانيا الحالية) ، وكانت عاصمتها سرمزجتوسا التى لم يعد لها الآن وجود . وكان فى جنوب هذه الولاية وشرقها ولاية مثيزيا (وتشمل أجزاء من يوغوسلافيا ورومانيا وبلغاريا الحديثة) ، وكان فيها على الدانوب مدينتان كبيرتان هما سنجدنوم (بلغراد الحديثة) وترتزمس Troesmis (إجلتزا Iglitza) وثالثة بالقرب من نهر إسكر Isker وهى سرديكا Sardica (صوفيا الحالية) ، وثلاثة بلاد كبرى على البحر الأسود وهى إستروس Istrus ، وتومى Tomi (قسطنجة الحديثة) وأديسس Oddessus (وارنه Varna) . ولقد كافحت الحضارة اليونانية والجيوش الرومانية فى هذه المستقرات النكدة لكى تحافظ على كيانها ضد القوط ، والرومانين ، والهون ، وغيرهم من القبائل المتبربرة التى أخذت تتكاثر وتتجول فى شمال النهر العظيم ، ولكن هذا الكفاح لم يجدهما نفعا .

وكان عجز رومة عن تمدين هذه الولايات الواقعة جنوب الدانوب هو الذى أدى إلى سقوطها . فلقد كان هذا الكفاح من أشق الواجبات على شعب يعانى آلام الشيخوخة ، وكانت حيوية الجنس السائد قد أخذت تضعف فى مهاد الراحة والعقم بينما كانت القبائل الضاربة فى الشمال تتكاثر وتقوى وتزداد جرأة وتهورا . فلما أن قدم تراجان المال للرومانيين ليجنحوا للسلم كان ذلك العمل منه بداية النهاية ، ولما أن جاء ماركس أورليوس بآلاف من الألمان وأسكنهم داخل

الإمبراطورية ، انهارت الحواجز التى كانت تفصل بينهم وبين الرومان ، واستقبل الجنود الألمان فى الجيش الرومانى بالترحاب ، وارتقوا إلى مناصب القيادة . وما لبثت الأسر الألمانية أن تضاعف عددها فى إيطاليا بينا كانت الأسر الإيطالية آخذة فى الانقراض . وهكذا انعكست الآية فى هذه الحركة ، فأخذ البرابرة « يبربرون » رومة بعد أن كانت رومة تصبغهم بصبغتها . لكن عجز رومة عن ضم الشمال لخطيرة التراث الرومانى واليونانى القديم لم يقلل من عظمة ضمها الغرب لهذا التراث أو من خطر شأنه . ففى هذا الغرب على الأقل برزت فنون السلم من بين عجاج الحرب ، وكان فى وسع الناس أن يستبدلوا بسيوفهم محاريث من غير أن تنحل قواهم فى نعيم المدن وأحيائها القذرة . ونبتت فيما بعد حضارة جديدة فى أرض أسبانيا وغالة القوية حين ضعف تيار البرابرة ، وأثمرت بذور قبور الطغيان ثمارها ، وعفا الدهر عن آثامها فى البلاد التى جاءت إليها الجحافل الغاشمة بقوانين رومة ونقلت إليها شعلة الحضارة اليونانية .